نصّ من الفانتازيا العراقية

ما لم يصرِّحْ به شمسُ الدين ابن خلِّكان في سِفْره «وَفَيات الأعيان»

نادية غازي العزّاوي
(باحثة وكاتبة عراقية)

الإهداء: إلى جواد الأسديّ... حمّام الدم الذي تخيّلَته على المسرح قطرةٌ من حمّامٍ أكبر نستحمّ به جميعُنا الآن هنا، بل ـ عذرًا ـ نتلطّخ به.

المتن

قال المحقِّق: يا سادة يا كرام، ما ذكره ابنُ خلّكان في سيرة «القاضي عبد الوهاب المالكيّ» (ت ٤٢٢ هـ)، روايةً عن ابن بسّام في كتابه **الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة**، هو الآتي بالتمام والكمال، في الجزء الثالث من النسخة المنشورة:

«كان بقيةَ الناس، ولسانَ أصحاب القياس. وقد وجدتُ له شعرًا معانيه أجلى من الصبح، وألفاظُه أحلى من الظَّفَر بالنجح نَبَتْ به بغدادُ، كعادة البلاد بذوي فضلها، وعلى حُكْم الأيام في مُحْسني أهلها. فخَلَعَ أهلَها، وودَّع ماءها وظلَّها وحُدِّثتُ أنّه شيَّعَه، يومَ فُصِلَ عنها، من أكابرها وأصحاب محابرها، جملةٌ موفورةٌ وطوائفُ كثيرة، وأنّه قال لهم: لو وجدْتُ بين ظهرانيكم رغيفيْن كلَّ غداةٍ وعشيّةٍ، ما عدلتُ ببلدكم بلوغَ أمنية .. ثم توجّه إلى مصر، فحمل لواءها، وملأ أرضَها وسماءها، واستتبع ساداتها وكبراءها. وتناهت إليه الغرائبُ، وانثالت في يديه الرغائبُ فمات لأول ما وصلها من أكلةٍ اشتهاها فأكلها وزعموا أنّه قال، وهو يتقلّب، ونفسُه يتصعّد ويتصوّب، لا إله إلاّ الله إذا عشنا متنا »

قال المحقِّق على أنّي وجدتُ على هذا النّص في المسوَّدات حواشيَ وتعليقاتٍ لبعض تلاميذ المؤلِّف تركوها غفلاً من أسمائهم:

تعليق: هذا وطنٌ لا يرعى لأبنائه لا حرثًا ولا نسلاً ولا حبّاً ولا عِلمًا: إنّه وطنٌ استمرأ دورَ القوة الطاردة فبعد القاضي عبد الوهّاب، واصلتْ جموعُ المبدعين الرحيلَ القسريَّ عنه، يطوون الضلوعَ على قلوبٍ عامرةٍ بفيوض الحياة.

عجيبٌ أمرُ هذا الوطن! وأعجبُ منه أبناؤه: يبرِّحهم ضربًا وطردًا، فيلْعقون جراحَهم، مردّدين مع السيّاب.

«الشمس أجملُ في بلادي من سواها، والظلامْ
ـ حتى الظلام ـ هناك أجملُ، فهو يحتضن العراقْ »

حاشية: ذَكَر ابنُ خلّكان نفرًا من الراحلين: المتنبّي، الجواهري، مظفّر النوّاب، كوكب حمزة، عبد الوهاب البيّاتي، فؤاد سالم، رفعة الجادرجي، نازك الملائكة، بلند الحيدري، سعدي يوسف، حسب الشيخ جعفر، كاظم الساهر، مصطفى جمال الدين، علاء بشير، ناهدة الرماح، خليل شوقي، فوزي كريم، هادي العلوي، كاظم حبيب، لطفيّة الدليمي، عبد الرزّاق عبد الواحد، محمد سعيد الصكّار، فاضل العزّاوي، نجيب المانع، ضياء العزّاوي، غائب طعمة فرمان، عبد الحقّ فاضل، قاسم محمد، فؤاد التكرلي، عبد الستّار ناصر...
ثم توقّف عن الكتابة حين ضاقت جذاذاتُه بالأسماء. وما زال يواصل البحثَ عن جذاذات فارغة لمن يقفون الآن على أبواب «طريبيل» و«الوليد» و«المنذرية» ينتظرون تأشيراتٍ رسمية. وسيترك جذاذاتٍ أخرى لمن ابتلعتْهم دهاليزُ التهريب في الأصقاع النائية، إنْ ظفر بأسمائهم وعناواتهم الحقيقية في غير جوازاتهم المزوّرة.

حاشية: أسبابُ رحيلهم متشابكة، حذفتْها الرقابةُ من النسخة المنشورة. ولكنّ ابنَ خلّكان خبّرنا عن بعضها في الجلسات السرية التي جمعتْنا به حدّثَنا قال: إنّهم يرحلون بحثًا عن خبزٍ عزّ عليهم في وطنهم العائم على بحيْراتٍ من نفط.
وحدّثنا أيضًا: إنّهم يرحلون بحثًا عن ليالٍ مضيئة بساعات مفتوحة من الكهرباء، بلا قطع أو تقطيع أو انقطاع؛ ليالٍ مزدانةٍ بمصابيح لا تطفئُها غاراتٌ جويّة، ولا أعمالٌ تخريبية.
وأخبرنا أنّهم قاصدون فضاءاتٍ يتنفّسون فيها عبقَ الحرية، بلا خوف من جدران تتنصّت، وأبوابٍ تتحرّى، وطلقاتٍ طائشةٍ، وقذائفَ عامدةٍ.
وحَدّثنا أيضًا أنّهم يواصلون الرحيلَ الآن خوفًا على «أفراخ زغب الحواصل» من مستقبلٍ أجرد لحروبٍ قادمةٍ، سليلةِ حروبٍ سابقةٍ أكلتِ الرجالَ عبثًا، ورمّلت النساءَ في أشهى مواسم التفتح.

تعليق: كأنّها لعنةُ الموت تطارد هذا العراقيَّ المفعَمَ بالحياة حتى النخاع : موت في أقبية البوليس وفي السجون السريّة، موتٌ في خنادق الحروب، موتٌ في الأسْر، موتٌ في مقابر الغرباء، موتٌ في الوطن يبتلع ويبتلع حتى غدا قبرًا كبيرًا، والنذيرُ يعلنها على الملإ كلُّ مَنْ فيه مقتولٌ لا محالة: انتحارًا مثلَ حياة شرارة (كما زعم البوليس)، أو كمدًا مثل مؤيِّد نعمة (الذي ظلّ يصرخ ويستصرخ العالمين. «ثمة ضوءٌ في نهاية النفق ولكنّي ما عدْتُ أراه»)، أو اغتيالاً مثل قاسم عبد الأمير عجام، أو طعنًا بالسكين مثل محمود البريْكان.

كأنّها «لعنة» أو «لعبة» الاسم ـ لا فرق. فأرضُ السواد ما برحتْ تتلفّع وتلفّع أبناءها بالرايات السود، كخيطِ التاريخ الممتدّ من أولِ فجرِ الرُّقَمِ الطينيةِ المفخورةِ إلى آخر فجر الشاشات الرقميّة.

تعليق: لا تنتظروا عودةً من الراحلين: لا عودةَ الجسد، ولا عودةَ الروح، ولا عودةَ الذاكرة مَنْ عاد منهم فرّ ثانيةً إلى منفاه مرعوبًا من صدإ القبح الزاحف على بلورات الثلج.

حاشية: حدّثنا ابنُ خلّكان. كانت ميسلون هادي تستعدي المكانَ على الزمان في بعض مقولات إهدائها: «ما بعثره الزمانُ يلملمه المكانُ.»
قلنا له: يا شيخ، ها قد وصلنا الآن الى قاع الهاوية؛ فالزمانُ لدينا مشظّى، والمكانُ مشظّى، والمرءُ بينهما مشبوحٌ كالصليب فيا ليتْ شِعْري: نستعدي مَن؟ وعلى مَنْ؟

حاشية: أخبرنا ابنُ خلّكان: أنّ علي بدْر، الوارد اسمه في الجزء الرابع من هذا السِّفْر، يقترح حلاً سحريّاً لهذا المأزق. إنّه يقترح «اللاوطن» حيث «الحشودُ من الناس الذين يُحْرقون الخرائطَ ويدمّرون سلطةَ الحدود ويهربون بعيدًا. .. الوطن هو هذه السجون الكبيرة لحبس الناس، الكلُّ يريد أن يهرب، يريد أن يسافر كي يرى وجهَ الشمس.»
قلنا له يا شيخ، ظلّ القاضي عبد الوهّاب يردّد في الطريق ما بين بغداد ومصر: أنّ الفرق بين المنفى اختيارًا والمنفى اضطرارًا هو كالفرق، تمامًا، بين الوطن اختيارًا والوطن اضطرارًا. وحين سأله صحبُه في القافلة توضيحًا لما يقول رَفَعَ صوتَه بالنشيج والنشيد:

سلامٌ على بغداد في كلّ موطنٍ ... وحُقَّ لها منّي سلامٌ مضاعفُ
فوالله ما فارقتُها عن قلًى لها ... وإنّي بشَطَّيْ جانبيْها لعارفُ
ولكنّها ضاقتْ عليّ بأسْرِه ... ولم تكن الأرزاقُ فيها تساعفُ
وكانت كَخِلٍّ كنتُ أهوى دُنوَّهُ ... وأخلاقُه تنأى به وتُخالفُ

مستدرك على المتن

قبل أن يَلْفظ القاضي عبد الوهّاب المالكي أنفاسَه، أوصى الحضورَ أن يَحْفروا في سويْداءِ قلوبهم تعويذةَ رشدي العامل في «طريقه الحجريّ»:

أيُّهذا الوطن،
لا يعرفُ الحبّ سورًا
ولا يَمْلك العاشقون الثمنْ.
غير أنّ الضلوعَ تَراقَصُ بين
الولادةِ والموت،
بين القماط وبينَ الكفنْ.
أيّهذا الوطن!

بغداد